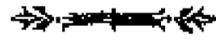


واصرارها على امتلاك ميناء على بحر الأدرياتيك ومقاومة النمسا لها ،
ومن الحاح رومانيا بتوسيع منطقتها في املاك بلغاريا حتى ثغر « قارنه »
على البحر الاسود أيضاً جزاء وفوفها على الحياد ورغبة هذه في التنازل لها
عن بعض أجزائها من الجهة الاخرى فقط وهلمَّ جرأاً ، أما الأيام
فستكشف ما انطوى وان غداً لناظره قريب ما



جمال الدين الافغاني

في نظر

« الدكتور شبلي شميل »

يشغل الدكتور شميل في هذه الاثناء بوضع كتاب كبير عنوانه « حوادث وخواطر »
او هو مجموعة مذكراته كما يدل عليه الاسم . وقد اقتطنا منه الفصل التالي في السيد جمال الدين
الافغاني الشهير . قال عفا الله عنه :

... أما جمال الدين فكان من نوابغ عصره عالمك واسع الاطلاع
في علوم الأقدمين وفلسفتهم ذا ذكاء مفرط وأدب رائع مع شجاعة في
القول لا تصدر الا عن نفوس مستقلة كريمة وكان ذا حديث طلي شهبي
لا يمل منه سامعه مع فصاحة عربية في التزام القواعد واختيار الألفاظ
ولكنها ممزوجة ببعض لكمة أعجمية تمُّ عن أصله الغريب وانما وقعها
على الأذن كان محبوباً . ونظره كان جذاباً وله عينان الى السواد غائرتان
قليلاً تنقدان ذكاء . وهو لم يكن يعرف لغةً من لغات الافرنج الحافلة
بالأفكار الجديدة والمعلوم الحديثة ولكنه كان ذا مقدرة عجيبة في التحصيل

حتى انه ليستفيد منك الشيء الجديد ويصبه في قالب المعلوم المختمر فيه ويوهمك انه معروف له منذ زمان طويل . وجمال الدين لم يكتب في ما أعلم شيئاً وانما كان يلقي على آخرين مقالات ضافية تنشر في جريدة مصر تحت أسمائهم . ولولا الشيخ محمد عبده يده الكتابة لما كان لصوته صدى ولبقيت تعاليمه في صدور اكثر الذين تلقوها عنه وماتت معهم اذ كانت كل تعاليمه حديثاً يلقيه بحسب مقتضى الحال . فهو فيلسوف من الفلاسفة المشائين او بالحري الرواقيين ورواقه كان رواق القهوة التي يجنب قهوة البورصة القديمة المتقدم ذكرها . ولعل تلاميذه لا ينسون في مستقبل الأيام ان يحبوا ذكره بينهم في ذلك المكان . وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال الدين مقتصرة على الأخصاء وأعماله محصورة في دائرة مرديه وأما جريدة مصر فكانت سبباً كبيراً لاذاعة صديته ونشره في الآفاق

*
*
*

ولما عرفت أديب^(١) بجمال الدين كانت معرفتي بهذا الاخير حديثة العهد . فقد كنت أسمع به وأنا في الاسكندرية فلما أتيت الى مصر وددت ان أتعرف به . وكان يتردد كثيراً على بيت حنا عيد قنصل دولة البلجيك . فلما أبدت رغبتى هذه لعيد المذكور ضرب لي موعداً للاجتماع به عنده في احدى السهرات . ولما تعارفنا أخذنا ننتقل من حديث الى حديث الى ان ابتدته بالسؤال الآتي (ولم يكن سبق لي كتابة أو تصريح في هذا الموضوع بعد) . قلت : ما قول سيدي الشيخ (لفظة الأستاذ

(١) يعني به اديب بك اسحق الكاتب الشهير

لم تكن قد جرت بعد على الألسنة كما هي اليوم) في المعبود الأول الذي
أخذها الانسان من بين أشياء هذا الوجود ؟ . وكأني لحظت انه أخذ
بهذا السؤال على غرّة كأنه لم يخطر له يبال من قبل . فتقلنا قليلاً كأنه



جمال الدين الرفاعي

يريد ان يتمكن في مجلسه ولم يطل به ذلك حتى دخل في مقدمة
مستفيضة أغنته عن التزام الصمت طويلاً وأعانتة على تصوير الحكم بما
فسحت له من الوقت ومثله لم يكن يلزم له أكثر من ذلك لما له من سرعة
الخواطر وحدة الذهن . ولا أذكر شيئاً من هذه المقدمة وإنما أذكر انه

انتهى بها الى القول « ان المعبود الأول للانسان الأول كان يقتضي ان يكون في ثنايا الغيوم المتلبدة أو هي نفسها »

أما أنا فلم أكن من رأيه وكأني نظرت الى الانسان نظراً أعرق في الحيوانية . فاعتبرت الانسان الأول لاصقاً بأرضه يتخبط في ما أمامه متخوّفاً من كل شيء . اذ كان يجهل كل شيء . فاتخذ معبوده الأول من أشياءها ولم يرتفع بصره الى ما فوق إلا بعد ذلك بكثير . واعتبرت حينئذٍ العبادة الفتيشية أول عبادات الانسان وجعلتها في الغابات الكشيفة ذات الشان في الميثولوجية القديمة وفي الاشجار الكبيرة المنفردة القائمة في العراء يُستظلُّ بها من الرمضاء كما تدل عليه بقايا ذلك فيه حتى اليوم . وهذا الحكم لم يقم بي اعتباطاً من دون تفكير سابق بل قام في نفسي على أثر زيارتي لمدينة بعلبك في سنة ١٨٧٠ حين رجوعي من انطاكية وكنت قد أرسلت اليها في بعثة من قبل المدرسة الكلية حين كنت أدرس الطب لاغانة منكويها في الزلزال الذي نكبت به تلك المدينة في تلك السنة . وكان رفيقي في هذا السفر ذهاباً واياباً ادورد فاندريك المعروف عند المصريين ابن الشهير كرنيليوس فاندريك صاحب الفضل الاكبر على سورية وسائر الاقطار العربية في نهضتها العامية الحديثة

فما وصلنا بعلبك بعد سفر اربعة عشر يوماً في مروج خصيبة يتعالى فيها الحشيش الطبيعي الى قامة الانسان ولكن يد حكامها الطفافة أخطتها وتركتها قفراء من السكان لم نشأ ان نقيم في المدينة وفضلنا ان نبني ليلتنا في قلعة بعلبك نفسها وكان القمر بدرًا والسماء صافية فبين الأثار الكثيرة

المتهدمة توجد أعمدة من الغرانيت ذات علو شاهق لا تزال قائمة صفاً واحداً في ساحة منبسطة . فلما وقفتُ أمامها في ضوء القمر الصافي وفي وسط ذلك السكون الرهيب والشباب غضُّ والعواطف شديدة التأثير



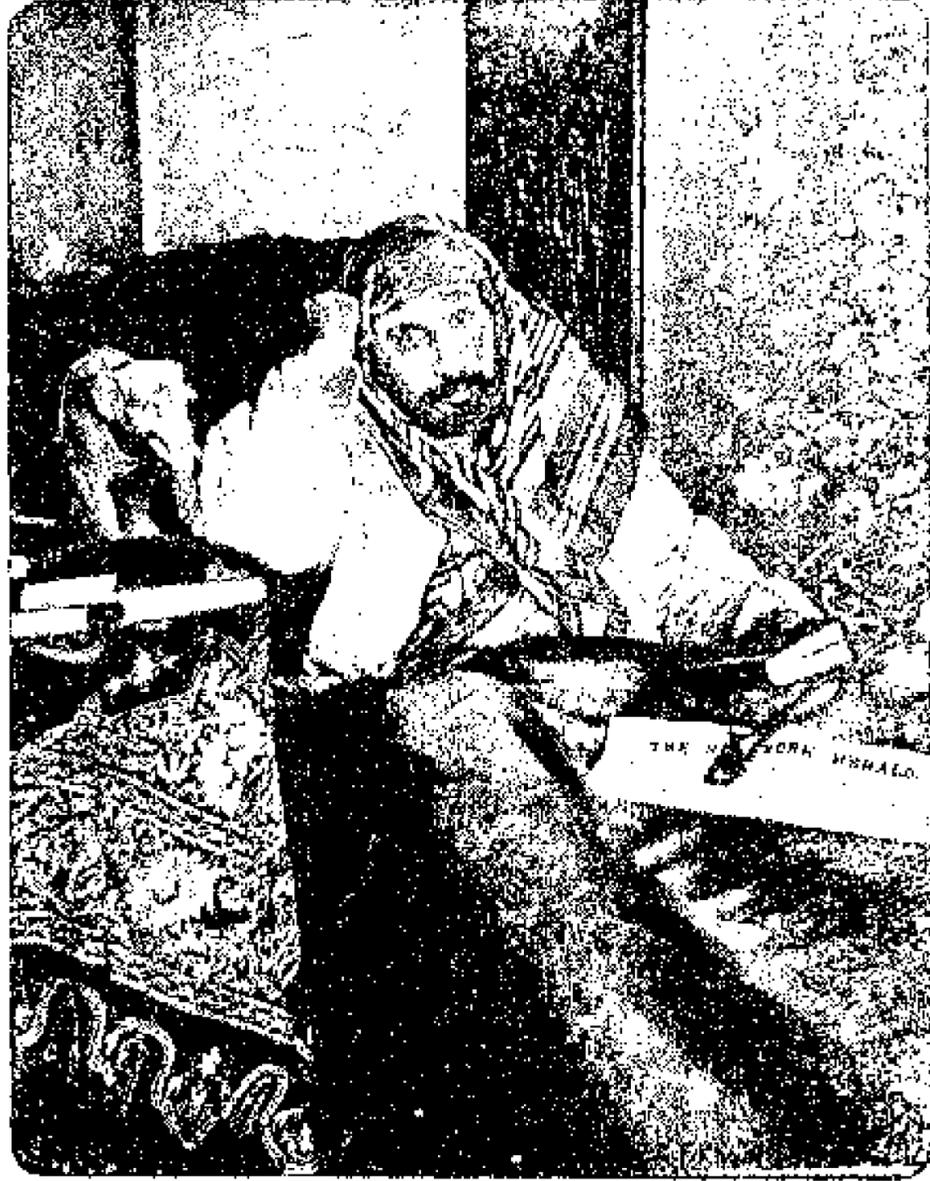
الدكتور سمبل

شعرتُ في نفسي بتهيب من منظرها الفخم لا يزال أثره بي حتى اليوم كدت أجتو منه على ركبتي من شدة الخشوع . فكان هذا الشعور بي كان لي موضوعاً للتفكير بعد ذلك في أمر العبادات وان منشأها في الانسان إماتهب عن اعجاب أو خوف عن ضعف . وأحر بالانسان الأول اللاصق بأرضه ان يكون معبوده الأول منها على نحو ما تقدم قلت ان جمال الدين كان من الفلاسفة الرواقين أي انه كان ينشر

تعاليمه في طي المحادثات الاعتيادية ولكنها كانت محادثات خلاّبة في لذّة المعنى وحسن الانسجام ولم يتهيا له ان وقف خطيباً في قوم الأمرة واحدة أظهر فيها انه خطيب مفوّه أيضاً وكان ذلك بمسعى اديب اسحق وفي تياترو زرينيا على محضر من جمهور غفير من عليّة القوم من رجال ونساء من السوريين والمصريين . فألقى خطبة اجتماعية سياسية أبدع فيها معنى ومبنىً وجرأةً وبقي يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون ان يبدو عليه أدنى تعب أو يتلثم حتى خلب العقول وأقام الناس وأقدمهم كأنه رابطهم بسلاسل كلامه يلعب بهم كما يشاء . وقد أعجبنى منه قوله فيها وهو يتكلم عن استبداد الملوك واستماتة الشعوب قال « كأن الناس ليسوا شيئاً والملوك هو كل شيء ان قام قاموا وان قعد قعدوا »

ولما بلغني ان جمال الدين بعد ان نفي من مصر بيضع سنين كتب رسالةً باللغة الافغانية في نفي مذهب الماديين ترجمها الشيخ محمد عبده الى العربية دُهِشت لعامي بأن الرجل لم يكن من المتدينين . على ان جمال الدين كسائر الفلاسفة الأقدمين لم يكن يستطيع بمبادئ النظرية وفلسفته المجرّدة ان يجزم جزم الطبيعيين في استنادهم الى العلوم الحديثة اليوم فلم يكن يستطيع إلا ان يكون من الشكوكيين أمثال المعري وأمثال فولتير الذين ينكرون الأنبياء ولكنهم يقفون مترددين في أمر الخلق هل هو حادثٌ أو قديم فيكونون تارةً من الالهيين وطوراً من اللاأدرين لعدم تمكنهم من ضابط عامي محسوس يضبط أحكامهم ويقوّي حججهم في تردّدهم اللهم إلا ان يكونوا من الحصافيين النفعيين الذين يكونون في

اعتقادهم على هوى جليستهم تارةً أقرب الى المعطلين وطوراً أقرب الى المؤمنين أي أنهم يكونون كما وصفهم الامام الغزالي حين قال : ان الآراء ثلاثة أقسام : رأي يشاركه فيه الجمهور فيما هم عليه . ورأي يكون بحسب ما



جمال الدين الافغاني في مرضه الاخير

يخاطب به كل سائل ومسترشد . ورأي يكون بين الانسان ونفسه لا يطلع الا من هو شريكه في اعتقاده « اه . ويصعب عليّ جداً بعد اختباري الرجل بنفسه من جهة ثم سماعي عنه بعد ذلك ان ابدي فيه حكماً جازماً ولكني ارجح جداً انه لم يكن من المؤمنين الدكتور شميل